التصوف وتـأثيره الفكري والثقافي في أفريقيا
(النيجر ومالي انموذجاً)

اسم الطالبة :نجاح علي سويسي الباحوطي
اشراف:ا.د.محمد عبد السلام زغوان
قسم الفلسفة- كلية الاداَب

ماجستير – 2009م

قُدِمتْ هذه الدراسة عن التصوف ودوره في غرب القارة الافريقية ، مع تسليط الضوء على دولتي مالي والنيجر كنموذج للدراسة ، ومن خلال هذه الدراسة تناولت شخصيات ثقافية سياسية اجتماعية ومؤرخون ومفكرون من المنطقة أو خارجها كانوا متصوفة ، أو درسوا على متصوفة ، أو تبادلوا رسائل معهم أو تأثروا بهم عبركتاباتهم ، تناولت العديد منهم داخل البحث ، تأكدت من انخراطهم في المنهج الصوفي عبر كتب تاريخ وتراجم أومن خلال سيرتهم الذاتية ، وأحياناً يتضح ذلك من خلال تخصيص مؤلفاتهم في التصوف . النتائج : اتضحت لي أمور غامضة وأشياء مبهمة ، وإجابات حول إشارات استفهام استوقفتني ، فالبحث يؤكد دور التصوف في أفريقيا ، من خلال رجال التصوف وأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، أقحمتهم الحياة بظروفها الصعبة ومواقفها المتابينة فاقتحموا الصعاب بكل قوة ولم يبقوا على مجال إلا و دخلوه ، فكان من بين النتائج التي توصلت إليها :أفادت الدراسة أن دخول الفتوحات والحملات العسكرية لم يكن معناه رسوخ الدين وإسلام أهل البلاد ، ورأينا كم مرة انفضت أفريقية عن الدولة الإسلامية مما جعل عقبة بن نافع يبني مدينة القيروان 1، فلو تحدث عن حملات عسكرية فإنها من عهد عمر بن الخطاب اي في القرن الاول هجري/ السابع الميلادي ، لكن الإسلام كان رسوخه تدريجيا وعندما اتحدثت عن الإسلام فإنني اقصد معه اللغة العربية وانتشارها، فكان يزداد قوة ورسوخا بمرور الزمن مع قيام أي دولة إسلامية . فإذا كان الشمال الذي يعتبر أكثر توثيقا ـ تاريخياً من الصعب أن تحدد سنة إسلام أهله ، فكيف بغرب القارة ؟ الذي يعتبر تاريخها حديث مقارنة بتاريخ (نعني التاريخ المؤرخ والموثق ولانعني التاريخ الحضاري) المشرق الإسلامي والشمال الافريقي ، من هنا يتضح دور الصوفية فكانوا من أهم عوامل انتشار الإسلام غرب افريقيا إلى جانب التجارة و الهجرات . من المآخذ التى تؤخذ على التصوف أنه جانب روحاني قريب من الزهد الذي أساء بعضهم فهمه بأنه الكسل والخمول ، من خلال مادرست يصبح هذا القول مشكوكا فيه ومردودا عليه ، فهاهو التصوف في جانبه العملي الاخلاقي كان فعّالا ومهما وصاحب بصمة لا تُمحى . اثبتت الدراسة تأثير الشمال القاري على غرب القارة بطريقة تجعل منه كتلة واحدة وامتدادا ثقافيا واحداً ، فكان التصوف من أهم روابط قارة أفريقيا فهو موجود بقوة في شمال القارة وشرقها وغربها وجنوبها .اثبتت الدراسة تأثير الشمال القاري على غرب القارة ، فوجدت بلادنا (ليبيا) تتصدر الدول التي أثرت في الغرب الإفريقي منذ القدم ، معلنة بذلك تقدمها الثقافي ، ولم تكتف بذلك بل سعت جاهدة للدفع بالثقافة الإسلامية نحو الجنوب (ما وراء الصحراء) ، حيث ورد في كتب التاريخ أن عائلات حكمت قبل الإسلام أصولها ليبية ، كما كان لعلماء ليبيا تأثير في المنطقة إما عبر كتاباتهم أو من خلال وجودهم في المنطقة ، تأثيراً لا يقل عن المغرب الأقصى على المنطقة فكان الموضوع أكبر من أن نشير له في مبحث أو حتى فصل كامل ، ولكن ركزت عليه

في الفصل الثالث المبحث الثاني والفصل الرابع المبحث الثاني . أثبت التصوف وجوده بقوة كعلم مستقل بذاته ، و كتاباته وشخصياته وتاريخه إلا أنه يصر البعض حشره وحشوه ضمن علوم أخرى رغم أنه علم له تفرعات عديدة ومختلفة في عدة مجالات، من أهم ما تبين حول التصوف أنه منهج قابل للالتواء والمطاوعة ، فمن خلال التعريفات التي درسناها تبين لنا ألا نتخذ تعريفا واحداً ، حيث اتضح أنه مفهوم متطور متغير متجدد ، مع حفاظه على أسلوبه وهو السعي لمصلحة الانسان بكافة أشكالها وأساليبها ، وهذا بالضبط ماركزت عليه الدراسة وهو متابعة هذه التطورات .من الامور التي تجلت خلال الدراسة أن التصوف ورجال الطرق يأخذون اشكال مختلفة بحسب البيئة وانعكاسها عليهم فهم في الغالب مرآة لعصرهم ، ومثال على ماقلنا نجد التصوف قد مثل الجانب الدعوي في غرب القارة حيث لم يعرف الفتح الإسلامي الاول طريقه نحوها ، لكن بفضل التجارة الموجودة بين الشمال والجنوب الصحراوي ، انتشر الإسلام واقتصر انتشاره على حالات فردية ، مع دور الدعاة الصوفية ومجهوداتهم كان الدخول للدين الإسلامي بشكل جماعي ، فقد تبين لنا خلال الدراسة أنه قد يأخذ الصوفي ثوب الداعي ، مَثّل هذا الجانب الداعي الصوفي محمد المغيلي ، كما مثله السيوطي .أفادت الدراسة أن (التحصيل العلمي) من أهم ما امتاز به المتصوفة ، فتجد أغلب رجاله معلمين منهم من أفنى عمره في هذه المهنة أمثال أحمد بابا التمبكتي ، كما أسس الصوفية مكتبات وأوقفوها على المتعلمين ، لم يكتف بهذا فقط ، بل عملوا على إحضار كتب سواء كانت لمتصوفة أو لغيرهم من اماكن مختلفة ، كما أضافوا لهذه المكتبات مؤلفات وكتب من إنتاجهم في مختلف العلوم .

عمل التصوف على ربط القارة عن طريق (التواصل الاجتماعي والفكري والثقافي) ، فكان المتصوفة يتجولون داخل القارة ، ناقلين معهم معارفهم وعلومهـم وأخذين من علوم غيرهم فقاموا برحلات علمية بغرض التعليم والتعلم ، فكانت كتب المغرب الصوفية موجودة غرب القارة كدلائل الخيرات ، وكتب من غرب القارة في المغرب ككتب أحمد بابا التمبكتي ، وكتب من ليبيا لعلماء صوفية كانت موجودة غرب القارة ككتب الشيخ الزروق ، كما تبادلوا رسائل علمية مثل رسالة الشيخ عبد السلام الأسمر إلى أهل تنبكت ، ورسالة أحمد بابا التمبكتي لأهل توات . حاول التصوف (دعم الاقتصاد الوطني)، وهذا منحى اخذته كثير من الطرق الصوفية ، مثل الطريقة المريدية التي حاولت دعم الاقتصاد في بلادها عن طريق تشجيع الزراعة .مَثّلت الطرق الصوفية (الحركة الجهادية الإصلاحية) فقد وقفت أمام أقوى تيار فاضطرت لتغيير سياستها المعروفة بالسلم واللـين والمرونة ، امام غزو الاستعمار ما كان منها إلا ان حملت السلاح في وجه العدو ، مدافعةً عن الوطن ، مواجهة الموت والنفى للخارج وهو ما تعرض له كثير من المجاهدين ، متجاهلة قلة الإمكانيات فواجهت العدو الاوربي صاحب أقوى الاسلحة وأكثرها تطورا ، فكثير من الطرق الصوفية كانت سببا في استقلال بلدانها ، أو مساعدتها على الاستقلال لم يتوقف دورهم السياسي على الجهاد المسلح فقط ، بل وقف كثير منهم في وجه الحكام ، متحدين قراراتهم احياناً ، ومستشارين لهم أحياناً أخرى ، وهو ما لوحظ في علاقة المغيلي ومشورة الأسكيا له وإما عن طريق مؤلفاتهم السياسية كالتي ألفها عمر الفوتي ، أو واقفين ضدهم وجهاً لوجه وهو ما فعله أحمد بابا التمبكتي ضد حاكم المغرب . مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، واجهت القارة حملة من نوع أخر ، وربما كان خطرا أكبر من خطر الاستعمار ألا وهو خطر (التنصير) ، حيث دخل التنصير من أبوابها ونوافذها ومن كل ثقب بجدرانها ، فتجده يدخل عن طريق الطب بإستغلال المرض والفقر ، أو عبر وسائل التعليم ، أو عبر الإعلام بمختلف وسائله سواء صحف أو إذاعات ، وجدنا التصوف يقف حائلا ضد التنصير ،

اتضح ذلك من خلال تصريحات أدلى بها منصرون أمثال زويمر في مجلة الغارة على العالم الإسلامي يمكن العودة للمبحث الثالث الفصل الرابع هذا مايؤكد أن التصوف منهج يعمل على استخدام السياسة التوفيقية ، بحيث يوفق بين موضوعه ومنهجه ويعكسه علي عصره ، وفق ظروف وحيثيات العصر ، فالصوفي كما قيل ابن وقته .